تأثير الفكر التربوي الوضعي في المسلم المعاصر

الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تمهيد :

بدأ الفكر التربوي الوضعي بفرض وجوده على " دار الإسلام " منذ عهد الإستعمار الإوروبي الذي كان يسيطر على مقدرات الشعوب الإسلامية ، وعندما بدأ الإستعمار ينحسر في منتصف القرن العشرين ظلت السيطرة الفكرية مستمرة في صنع المجتمع الإسلامي بصيغتها مستهدفة في ذلك تشويه العقيدة والمبادئ والقيم وطمس معالم الحضارة الإسلامية وصرف المسلمين عن اللغة العربية وعن الإعتزار بالإسلام .

وتبدو خطورة الفكر التربوي الوضعي من زاويتين:

الزاوية الأولى : وتكمن في طبيعة هذا الفكر واختلافه في معظم مبادئه عن الدين ، ويستطيع الباحث أن يدرك من استعراض ماكبته " هيجل (1)، وتشالز دارون (2) ، وكارل

---

(1) فرديش هيغل : (1770 - 1831 م) فيلسوف ألماني قال إن الكائن والفكر شيئ واحد هو " الفكرة " والفكرة تتطور على مراحل الإثبات ثم النقض ، ثم الخلاصة ، له المنطق الكبير ومبادئ فلسفة الحق .

(2) تشارلز داروين : (1809 - 1982 م) إنجليزي صاحب نظرية التطور =

ماركس (1) ، وفرويد (2) وجوروين (3) " وغيرهم ، فقد سادت في كتابات هؤلاء وأمثالهم فلسفة خلقية تبريرية للتحلل من الدين والخلق ، وسيادة النفعية واللذة والعصرية والقومية والإقليمية ، حتى انعدمت في هذا الفكر الموازين المطلقة التي توجد بين بني آدم ، وأبرزت الإتجاهات التي تعبد عن طبيعة هذا الفكر هي العلمانية ... والوجودية ...

فالعلمانية هي : اعتقاد بأن الشؤون اللاهوتية والكنيسية لا ينبغي أن تدخل في الحياة المعاشة والرفاهية الإجتماعية والتعليم و أعمال الدولة بمعنى عدم الإرتباط والإلتزام بالتعاليم اللاهوتية والكنيسية وفصل كل ماهو ديني عن كل ماهو

= في الأجناس الحية ، قال إن ذلك نتيجة اختيار طبيعي لصالح الأجناس الأكثر أهلية للبقاء .

(1) كارل ماركس : (1817 - 1883) ولد في ألمانيا ، من رجال السياسة والفلسفة الإجتماعية ، حرر البيان الشيوعي سنة 1848 م ، بالتعاون مع فريدريك إنجلز : (1820 - 1895 م) فيلسوف ألماني إشتراكي ، وأسس كارل ماركس " الدولية الأولى " له رأس المال ، وهوعرض لنظريته المادية أصبح فيما بعد دستور الماركسية والنظام الشيوعي .

(2) سيغمند فرويد : (1856 - 1939 م) طيب وفيلسوف نمساوي ، مؤسس علم التحليل النفساني ، درس أهمية الدوافع والعواطف " اللاشعورية " والعوامل الجنسية لاسيما في طور المراد.

(3) وليام جودوين : (1756 - 1836 م) إنجليزي ، لم يتلق تعليما جامعيا رسميا ، وانصرف عن الدين ، واحترف الكتابة الروائية والسياسية ، يقوم فكرة على فلسفة فوضوية نفعية تنتقد أنماط الحكومات الإستبدادية ، وكان يعتقدان كل المؤسسات الإجتماعية فاسدة مفسدة .

دنيوي، والتحول إلى العلمانية هو التحول من سلطة الكنيسة التي كانت سائدة في أوروبا قبل عصر النهضة الصناعية إلى سلطة المجتمع أو الدولة ، والعلماني هوالإنسان الذي لا يلتزم بتعاليم الدين في سلوكه ومعاملاته الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والثقافية وتجاربه العلمية وبرامجه السياسية والتربوية (1) .

والعلمانية بفتح العين نسبة غير صحيحة إلى العالم ، وقد ينحرف بعض الناس إلى فهمها بجعلها نسبة إلى العلم ، وهو خطأ شائع ، ذلك لأن مفهوم العلمانية بنسبتها إلى العالم أي عالم الشهادة ، يعني توجيه الإهتمام إلى مايتعلق بالحياة الدنيا واسقاط الإهتمام بالآخرة ، وبعبارة أشمل وأدق تعني العلمانية: إما مجرد إستبعاد " الدين " من توجيه شؤون الحياة كالسياسة والإقتصاد والثقافة والتربية والتعليم والأخلاق ، بأن يترك للدين دائرة الوجدان المحصور في الشعائر ، وهذا هو المفهوم السائد في الغرب والدول التي ترفع شعار الديمقراطية الرأسمالية ، وإما أنها - أي العلمانية - تعني إسقاط الدين بالكلية واعتباره مخدرا للشعوب عن الإهتمام بحياتها التي لا حياة بعدها واعتباره " أيديولوجية " مصطنعة تنسجها الطبقة الحاكمة لمصالحها الإقتصادية الخاصة ، وهذا هو المفهوم السائد

---

(1) الدكتور عبد الحكيم عثمان: أضواء على حاضر العالم الإسلامي، ص77-78 .

في أوروبا الشرقية والدول التي ترفع شعار الشيوعية (1) .

ولما كانت العلمانية تعني " الدين " من مجال التأثير في توجيه شؤون الحياة الدنيا ، فإنها بحسب الظروف والدعاوي التي نشأت في ظلها تستدعي " العلم " ليقوم بهذا الدور ، وهذا هو عذر المخطئين في الخلط بين مفهوم العلمانية ومفهوم العلم ، وفي نفس الوقت خطأ المقتذرين عن استعاد الذين باستدعاء العلم ، لأن العلم وسيلة للتنفيذ وليس مرجعا للتوجيه، وهو وصف لخلق الله ووسيلة لمعرفة الله سبحانه وتعالى .

أما الوجودية فهي الفلسفة التي تقول بأسبقية الوجود على الماهية وأن الإنسان يوجد أولا ثم تتحدد ماهيته باختياراته ومواقفه ، هي مذهب مختلف بشأنه حتى بين اتباعه .

وقيل " الوجودية " هي مدرسة فلسفية معاصرة ذات ثلاث شعب الوجودية المسيحية عند كبر كجاد ، مؤداها أن خلق الإنسان يزول بالإيمان بالله .

الوجودية المسيحية عند مارتيان التي تقول : أن الإيمان بالله يحد من الرغبة في الوجود والخوف من العدم .

الوجودية الإلحادية(2) عيد

---

(1) والدكتور يحي هاشم : حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب ، ص 7 - 8 .

(2) الإلحاد : هو الكفر بالله ، والملحد : هو الذي يحكم على عبارة " الله موجود" بأنها قضية كاذبة ، والفرق بين الملحد واللا ادري ، إن الملحد منكر لله قاطع في إنكاره ومتعصب لهذا الإنكار ، بينما اللاادري يعلق الحكم على وجوده =

هيدجر (1) وسارتر (2) ، التي تجعل الإنسان مطلق الحرية في الإختيار مما يترتب عليه قلقه ويأسه .

والأساس المشترك بين الشعب الثلاث هو الوجود الإنساني، وأن الإنسان يستبد به القلق عند مواجهة مشكلات الحياة ، وبأفعاله تتحدد ماهيته ، وإذا وجوده الفعلي سبق ماهيته .

ومن الوجود بين من يقول : أن الوجود كله عبث لا معنى له على الإطلاق ولا غاية من ورائه الخالق ولا الخالق ، ومنهم من يقول : إن الطبيعة البشرية لا معنى لها ، وكذلك لا معنى للأخلاق التي تفرضها الطبيعة ، ولا معنى للإقدار التي قدرت على الإنسان ، بمعنى أن القيم الأخلاقية غير معتبرة عندهم(3).

الزاوية الثانية : ويمكن في تبني هذا الفكر للمؤسسات التعليمية والثقافية التي تبثه عن طريق مناهج العلوم النظرية ،

= أو عدمه ، فهو لا يعرف وغير واثق ، ويفضل ألا يقضي في الأمر برأي ، والملاحدة يسمون أحيانا بالدهر بين ، وأحيانا بالطبيعيين ، والأولون ذهبوا إلى قدم الدهر واستناد الحوادث إليه ، والآخرون قالوا يقدم المادة فهي لم تزل على كميتها لا تزيد ولا تنقص ، وقد يطلق الإلحاد على إنكار وجود الله ، كما قد يطلق على إنكار صفة من صفاته ، أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة .

(1) هيدغر : فيلسوف ألماني ، ولد سنة 1889 ، من مؤسسي الفلسفة الوجودية

(2) سارتر (جان بول سارتر) : ولد في باريس (1905 - 1980 م) فيلسوف وكاتب فرنسي ، من رواد الوجودية ، إمتاز بنزعة متشائمة ، عرض أفكاره في محاولات وقصص ومسرحيات ، منها : الكائن والعدم ، طرق الحرية ، والإيدي القذرة ، والجدار .

(3) الدكتور عبد المنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص 64 وص 525 .

والتطبيقية والقصة والمسرحية ، والرواية السنمائية ، والتي تعمل في الوقت ذاته على إظهار الإسلام على غير حقيقته .

ويقوم بهذه المهمة : المبشرون والمستشرقون الذين كانوا ولا يزالون يعملون في البلدان الإسلامية كخبراء وأساتذة للغات والعلوم الحديثة ، ومجموعة من نصارى العرب في الشام ومصر الذين تعلقت آمالهم بفلسفة الحضارة الغربية ، وخريجو الإرساليات والجواسيس الذين جندوا لأحداث التصدع في وحدة الأمة الإسلامية ، والقناصل الذين يعملون بإسم الحضارة والإنسانية والحرية والديمقراطية .

ومن العوامل التي ساعدت على تسهيل المهمة :

أولا : تدفق البعثات العلمية التي عادت من أوروبا وأمريكا تحمل فكرا " برجماتيا " (1) .

---

(1) البرجماتية : أهم إسهام فكري ، أمريكي وكان رواجها في الربع الأول من القرن العشرين وقد صاغ البرجماتية واخترع إسمها لأول مرة ، تشارلزبيرس (1839م - 1952 م) كمنهج للتفكير والنظرية في المعنى ، وأعاد وليام جيمس (1842 - 1910 م) صياغتها كنظرية في الصدق ، وطورها جون ديوي (1859 - 1952 م) وأذاعها كنظرية في القيمة .

وكان بيرس ، وجيمس وآخرون قد كونوا " النادي الميتافيزيقي " ببلدة كيمبردج بولاية ماسا شوستس ، وكانت البرجماتية حصلة النشاط الفلسفي للنادي واتجهت البرجماتية بتأثير : جون ديوى ، ولويس ، وكارناب ، وتشارلز ، وآخرون إلى أن تكون النظرية التي تقول بأن كل ألوان الخبرة ، بما فيها الفكر الفلسفي والنظريات العلمية والعقائد ، لا بد أن تفهم في ضوء الغرض الإنساني ، فالأفكار أدوات لتحقيق ما يصبو إليه الإنسان من غايات ، والحكم عليها يكون بمقدار كفايتها في خدمة هذه الغايات ، ومن ثم صارت " البرجماتية " إسما للموقف الذي يؤكد =

- إلا من عصم - من هؤلاء من اشتغل بتضليل الشباب والتشكيك في تعاليم الإسلام ومبادئه وصلاحيته للتطبيق في مجالات الحياة ، وتبين أنهم كانوا ينقلون فكر أساتذتهم في جامعات الغرب .

ثانيا : فصل التعليم الديني عن المدارس العمومية والإعتماد على المناهج الغربية .

ثالثا : صرب الدعاة ونفيهم من الأرض .

رابعا : المدّان القومي والإشتراكي اللذان أخذ كل منهما بطرح القضايا الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والثقافية من منظور لا ديني ، وكان ذلك إرهاصا بإعداد الركائز الحقيقية لقوى الإستعمار وبناء الجيل الذي سوف يؤازره بالسيطرة على التربية والتعليم والثقافة والإعلام .

وفيما يلي عرض موجز للموضوع :

يقوم المجتمع البشري بعملية التربية بهدف بناء شخصية أفراده بطريقة تمكنهم من العيش مع الجماعة في توافق وانسجام، مما يمكنهم من القيام بأدوار إجتماعية متباينة ومتكاملة الوظائف والمستويات بحيث ينعكس ذلك على المجتمع في شكل حفاظ على كيانه .

وقد تكون التربية - التي يضطلع بها المجتمع لتشكيل

= أهمية النتائج كإختبار لصلاحية الأفكار ، ومايزال هناك إهتمام بالبرجمانية في العالم الإسلامي راجع الدكتور عبد المنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص93-94 .

عقلية أفراده تشكيلا إجتماعيا معينا صالحة وقد تكون فاسدة ، وذلك تبعا لصلاح وفساد المبادئ والقيم والأفكار التي تقوم عليها .

وصلاح النظام التربوي أو فساده ينعكس على أفراد المجتمع فيتأثرون به ويتحملون تبعاته ، لذالك يحرص علماء كل عصر وكتاب كل جيل عى البحث عن الأساس الصالح الذي يجب أن يقوم عليه نظام التربية والمجتمع ، وغايتهم في ذلك تيسير سبل الخير والسعادة للناس ، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الحياة الطيبة المستقرة .

ويلاحظ أن العقيدة والمبادئ والقيم والإتجاهات الفكرية الفلسفية هي محور العملية التربوية بحيث يكون للمجتمع نظامه التربوي والإجتماعي والسياسي والإقتصادي والثقافي المستمد من العقيدة والمبادئ والقيم والأفكار التي يؤمن بها .

وعلى سبيل المثال ، يستمد المجتمع الإحيائي (1) قيمه وفلسفته الإجتماعية من معتقداته وعاداته وتقاليده المحلية .

كذلك يستمد المجتمع الرأسمالي قيمه واتجاهاته الفكرية وفلسفته الحضارية من اللبرالية بحيث تصل الحرية إلى أقصى مدى لها في القول والعمل والسياسة والإقتصاد والثقافة والتربية والإعلام وما إليها ، وكل ذلك في اتساق وانسجام مع

---

(1) الإحيائية : هي الإعتقد بوجود روح في الجماد و النبات كتلك التي لدى الإنسان ، والأحيائيون يتجهون إلى عبادة الأسلاف ليكون وسطاء بينهم وبين تلك الأرواح ، ويرمزون إلى الأسلاف بحيوان أو بشيئ من الجماد أو النبات .

الليبرالية كفلسفة عامة للحياة الإجتماعية ، ولم يسمح باستيراد منهج من المناهج المخالفة لمبادئ الليبيرالية ، كما يستمد المجتمع الشيوعي قيمه ومبادئه واتجاهاته وفلسفته الحضارية من الفلسفة الماركسية اللينينية التي تمثل الإطار العقائدي والأخلاقي للمجتمع ، ويصنع لها لون الحياة فيه .

فقد أخضعت الشيوعية جميع العلوم لنظريات قادتها ، وربطب بين هذه العلوم وبين أسس ومبادئ أولائك القادة رباطا وثيقا تغار عليه ، وتدافع عنه ، ولم يسمح بوجود غيرها في الميدان .

ومعنى ذلك أن هذه المجتمعات توقف بين التربية والتعليم والثقافة (1) والعلوم التي تحتاج إليها والمبادئ التي تؤمن بها وتجعل منها وحدة متناسقة لا تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها أو تسعى إليها ، وبين العقيدة والمبادئ التي تدعو إليها .

ولكن مع الأسف ، فإننا لا نستطيع أن نشير إلى نوع التربية التي يعتمد عليها المجتمع الإسلامي المعاصر في بناء شخصية أفراده .. هل هي إحيائية ؟ أم ليبرالية ؟ أم شيوعية ؟ أم إسلامية ؟ أو أنها مزيج مضطرب بلا هوية ؟

---

(1) الثقافة : إذا كانت التربية تقوم بإعداد الروح والنفس والعقل والجسد ، في إطار المبادئ والقيم الخلقية وإذا التعليم هو بناء القدرات وتكوين الأطروتلاقي العناصر في الكل المتكامل ... فإن الثقافة هي الثمرة الناتجة التي تمثل جوهر الفكر وأصالة الأمة وروح الجماعة .

إن الفكر التربوي الوضعي يستمد وجوده من ثلاث مبادئ رئيسية وهي :

أولا : مبدأ اللاديني : وهو يعتمد النظرية الفردية واستعلاء الإنسان وتحرره من كل عوامل السيطرة الحسية والمعنوية ، لكنها تقف مع الإنسان بصفة عامة موقف الفكرة اليونانيةالرومانية القديمة القائلة : سيادة الأوروبي لمن سواه .

ثانيا : مبدأ التطور المطلق الذي لا يؤمن بأن هناك قياما نابتة مطلقة وهو بذلك بتجاوز الدين ويؤمن بتطور الأخلاق .

ثالثا : مبدأ التقدم الحتمي الذي يقوم على أساس أن الحياة تتكون من البسيط إلى المركب إلى الأكثر تركيبا طبقا لقانون حتمي بمعنى أنه لا دخل لقدرة الله ومشيئته في التقدم والرقي .

وعلى أساس هذه المبادئ ظهرت نظريات تربوية عديدة ترفض الربط بين الدين والقيم ، وبين نظم التربية ، وتدعو إلى قبول الواقع لا تغييره ، وتقول : إن الروابط الأسرية قد تحطمت، وكذلك الروابط الإجتماعية ، ومن تم فإن الطفل يجب أن ينشأ في الصراعات ويشارك فيها ، ولا يجوز أن يعلم القيم بل يساعد على اكتشافها بنفسه .

ويعيش المسلم اليوم في خصم هذه الأفكار والفلسفات الرافدة التي لا تجعل من الدين والأخلاق والقيم أساسا للعمل والعلاقات العامة .

ولا يستطيع أن يواجهها بشجاعة واطمئنان ، ألا بأن

يحدد لنفسه موقفا من كل مايتلقاه ، وهنا لابد أن يمد رجال التربية يد البحث والتحليل إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليستخرجوا منها ما يعين المسلم على تحديد الطريق والموقف ، لأن القرآن الكريم يحرص على أن يعرض المواقف الفكرية المختلفة لغير المسلمين ويناقشها ويدحضها ، ويقدم البديل ويأمر باتباعه أو السير في ضوئه .

وإذا كان الغرب بشقيه الصليبي والشيوعي قد أقام نظرية في التربية على أساس فصل " الدين " عن التربية ، وعن توجيه شؤون الحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية وما إليها ، وفق تجربته مع الكنيسة ، فلأنه وجد في كل من اللبرالية والشيوعية ، إلاله الذي يناسب هواه تصديقا لقول الله تعالى : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ، وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون"(1).

فالفكر الوضعي الذي يفلده المسلم المعاصر في مجال التربية وغيرها ، يقوم على أساس من القول بنظرية " التشوء والتطور " التي ظهرت كرد فعل للمنهج الروحي المستمد من الكنيسة ، والذي يحط من قيمة المادة ويعلل الأشياء والأحداث بالمشيئة الإلهية وحدها ، وينبغي الأخذ بالأسباب ، وظهرت هذه النظرية في جو مشحون بالتفكير التطوري والتغييرات

(1) سورة الجاثية ، الآيتان : 23 ، 24 .

الإجتماعية والسياسية والإقتصادية التي كانت تهز أوروبا بقوة في القرن التاسع عشر ، والتي كانت تتخذ في بعض الأحيان شكل ثورات تهدف إلى هدم الأوضاع السائدة والوصول إلى إقامة نظم إجتماعية واقتصادية جديدة (1) .

وقد أدى تقدم الأبحاث العلمية في تلك الفترة المبالغة في الإيمان بقدرة الإنسان المطلقة على التقدم والإرتقاء غير الحدودين، وعلى التخلص من سيطرة الكنيسة والتحرر من التقاليد الإجتماعية .

وظهرت مفاهيم تربوية لبناء شخصية الإنسان والمجتمع الأوروبي يدور معظمها في إطار : حيوانية الإمسان ، والتطور حركة مطلقة ، والجنس مصدر كل تصرفات الإنسان ، والأخلاق نسبية لأنها مرتبطة بالعصور والمجتمعات ، والدين من مخلفات العصور القديمة سواء أكان أفيونا للشعوب كما تقول الماركسية، أم سلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الليبرالية ، وهو علاقة شخصية بين الإنسان وربه ومهمته التوجيه الروحي للأفراد فقط، بينما الدولة هي الأداة التنفيذية التي من مهمتها تنظيم العلاقات بين الأفراد والمجتمع ، والجنس الأوروبي أرقى الأجناس البشرية وصانع الحضارة الإنسانية ، وإن ضوابط الأخلاق تعيق التقدم ، وغير ذلك من أقوال ومفاهيم ونظريات تتنافى مع حقيقة الإنسان ورسالته في الحياة الدنيا ، كما

---

(1) الدكتور محمود عبد الحكيم عثمان ، أضواء على حاضر العالم الإسلامي ، ص 82 ومابعدها .

تتنافى مع تعاليم الدين الذي كرم الله به بني آدم .

فالدين منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك جعل من الإنسان محورا تدور عليه توجيهاته ، ومن آياته الكبرى الإلتقاء بالفطرة وموافقة طبائع الأمور وتوثيق أصالة الإرتباط بالله سبحانه وتعالى الذي يقول في محكم تنزيله " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (1) .

وقال تعالى : " قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"(2).

وقوله : " أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون " (3) .

إن كثيرا من تعاليم الدين لا تقف عند تنظيم العلاقات بين الإنسان وخالقه ولكنها تتعدى ذلك إلى وضع نظام محدد للسلوك الإجتماعي الذي يجب على المسلم إتباعه كأثر من آثار تلك العلاقات وكنتيجة لها .

وهذا النظام يقوم على مجموعة من الأوامر والنواهي والأحكام التي يوجب الدين تطبيقها في المجتمع وهي تهذف في مجموعها إلى تحقيق مايلي :

أولا : إصلاح الإنسان وتوجيهه نحو الخير والعدل

---

(1) سورة الروم ، الآية 30 .

(2) سورة الأنعام ، الآيتان : 162 ، 163 .

(3) سورة آل عمران الآية : 83 .

والإحسان كيلا تطغى شهواته ومطامعه على عقله وإرادته وواجباته .

ثانيا : إصلاح الأسرة وذلك بإحاطتها بكل الحقوق والواجبات التي تكفل لها العزة والكرامة والسؤدد ، وتجعلها أسرة سعيدة في مجتمع سليم معافى من الأنانية .

ثالثا : إصلاح المجتمع عن طريق إقامة العلاقات بين أفراده على أسس متينة تحفظ له الأمن والسلامة والإستقرار بصورة يسود فيها التضامن والتكامل لخير الفرد والجماعة .

ولما كان الإنسان هو اللبنة الأولى التي يتكون منها المجتمع فقد دعا إلي تربيته وتنشئته تنشئة صالحة ، وأن يغرس في نفسه وازعا أخلاقيا يحول بينه وبين السبيل غير السوى ، ويبعده عن مواطن الخلل ، والزلل في القول والعمل ، فالإقرار بالعبودية لله وحده والقيام بالعبادات المفروضة لوجهه تعالى ، والإيمان بأن الدين منهج حياة ونظام مجتمع ، يجعل الإنسان مؤهلا لتلقي التعليم والثقافة على نحو يمده بالقدرة والخبرة على تحمل مسؤولياته الفردية والجماعية ضمن نظام إجتماعي شامل، وعلى الإلتزام الأخلاقي ، ومواجهة المتربصين بعقيدته وعرضه وأرضه وكيانه ، والعمل على أساس التكامل بين العمل والثقافة والسياسة والإقتصاد والأخلاق ، وتأكيد مبادئ العزة والكرامة والحرية والعدل والإحسان والإخاء والمساواة والسلام(1) .

---

(1) الدكتور علد الوحد محمد الفار : الثقافة الإسلامية : ص 150 - 151 .

أما استيعاد هذه المبادئ والقيم عن ساحة بناء شخصية الإنسان المسلم ، فسيؤدي بالضرورة إلى إضطراب في شخصيته وعقيدته ونشاطه في معترك الحياة ، وبالتالي لا يخرج عن نطاق الفكر الوضعي وهو إذا قام على أساس المادة وإنكار الدين فقد أقام من الإنسان مفهوما ، ناقصا وقاصرا ، وإذا قام على أساس الحرية المطلقة فقد تجاوز مفهوم الدين الذي يعطي الإنسان الحرية ولكنه يجعله موطن المسؤولية ، وإذا رأى أن يجعل بين الله والإنسان حلولا أو تحادا فقد عارض التوجيه وأنكر المسؤولية الفردية التي هي أساس الجزاء .

وإذا وصف الأخلاق بأنها عادات وتقاليد إعتادها الناس في الأغلب الأعم ، فإن ذلك يرجع إلى مادية النظرية التي لا تفرق بين الأخلاق النابعة من الدين ، وبين العادات والتقاليد النابعة من المجتمع والتي يرى أصحابها ، أي النظرية المادية ، أن التربية هي إعداد الأجيال لمواجهة المجتمعات المتغيرة على نحو يمكنهم من أن يلائموا بين أنفسهم وبين هذه المجتمعات على أساس المادية التي لا تؤمن بأثر الغيب في التغيير ولا شك أن مفهوم التربية في الإسلام - كما أسلفنا - أعمق وأوسع وأكثر وفاء للإنسان وعقيدته وكيانه .

إن الأخلاق النابعة من الدين ثابته لا تقبل التطور أو التغيير ، فما كان فضيلة أمس لا ينقلب اليوم رذيلة والعكس صحيح ، فالكذب والغش والخيانة والسرقة وما إليها ، كل أولئك مذموم وقبيح في كل زمان ومكان ، فلا يجوز أن يتطور الإيسان فيها زاعما أنه من ضروريات العصر فالأخلاق لها قيم

ذاتيـة لا بديل لهـا ، ومـفـاهيم ثابتـة لا تتـغـيـر بمرور الأيام والأعوام، فالمنكر منكر دائما والمعروف لا تغير معناه مهما تغيرت الأحوال المادية لأي فرد أو جماعة أو أمة من الأمم ، وتنبثق الأخلاق التي يدعو إليها الدين من العقيدة ، وليست من المصلحة أو المنفعة ، لأن الأخلاق التي تقوم على أساس المصلحة أو المنفعة هي أخلاق تنتهي بانتهاء المصلحة أو بتحقيق المنفعة ، ولذلك فإن الإنسان الذي يشكله الفكر التربوي الوضعي يغلب عليه التمسك بالعادات والتقاليد والتقليد ، وعدم التمييز بين التقدم العلمي والإطارالذي يجب أن يتم فيه هذا التقدم ، وهو بشكل عام يعجز عن الإنفصال التام عن عقيدته وقيمته وتراثه الحضاري ، وفي ذاته عن الإرتباط الكلي بعقيدة وقيم ومثل الآخرين مما يؤدي إلى نشوء جيل ليس للدين والقيم والمبادئ نصيب في حياته ، وبالتالي يصل إلى الإعجاب بالغرب وتقبل مذاهبه وآرائه وطبائعه بلا تحفظ ، مما يؤدي إلى فقدان القدرة على التفكير السليم والإنتاج المستقبل الأصيل وعدم الثقة بالنفس .

وتأتي المشكلات والأخطار في التربية المستوردة إما عن طريق الإقتباس المستعجل بحيث تتجه العناية إلى المظهر أكثر من الجوهر ، أو لأن هذه المشكلات والأخطار كانت فعلا كامنة في النظرية ذاتها فالإقتباس أو الإستيراد بدون دراسة معمقة للنظرية وربطها باحتياجات المجتمع وقيمته ولغته وتاريخه وآدابه وأهدافه وآماله ، قد يحدث إزدواجا في الشخصية وثنائية في الكيان الإجتماعي ، وانحلالا في القيم اللازمة

للنهضة كالصدق والإخلاص والإتقان والعمل والوقت ، مما يسبب التنافس والخلاف وفقدان الوحدة والإنسجام ، ويشكل مشكلة ثقافية واجتماعية واقتصادية كبرى .

وهذا - مع الأسف - مانشاهده في عدد من البلدان الإسلامية التي تسير في عملية بناء أفراد مجتمعها سيرا مضطربا ، حيث يتجه بعضها نحو النظم الإنجليزية أو الفرنسية، ويستلهم بعضها الآخر النظم التربوية الأمريكية أو الكندية أو الألمانية أو الإسكندنافية أو اليابانية ، أو يستجلب النظم السوفياتية وربما الصينية والأسترالية ، ويصاحب ذلك الإصلاح المتكرر في المناهج والمواد الدراسية التي بنيت على نظريات حارجة عن تعاليم الدين ومفاهيم اللغة العربية ، وصيغت على واقع إجتماعي مخالف تماما لواقع المجتمع المسلم ولذلك يصعب هضمها ، والنتائج التي تترتب عليها لا تعكس النقص في الثقافة الإسلامية للإنسان المسلم فحسب ، بل تنعكس على الكيان الإجتماعي والطبيعي للأمة كلها لأن المدرسة هي التي تستطيع أن تغير نظام المجتمع ومفاهيمه بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الإجتماعية الأخر ، ولذلك فإن الدولة التي تجتاحها هزات تنتبه توا إلى أن مصدر الخطر هو فساد النظام التربوي فتعيد فيه النظر ، لأنه لا يكون نظاما قائما بذاته ويعمل منفردا مجردا عن الأسرة والمجتمع وإنما يكون جزءا من مجموعة النظم الإجتماعية والخاصة به ، وهو يعمل معها ويؤثر فيها ويتأثر بها على الدوام .

وإذا كان التواصل بين التعليم والبيئة أمرا هاما في كافة

المجالات فإنه في التربية ضرورة لازمة فالجهد الذي يبذل في تنشئة أفراد صالحين عرضة لأن يضيع هباء منثورا حين لا يوجد المجتمع الذي يعمل على تطبيق الفضائل في شؤون الحياة أو يعادي النظام التربوي ويعمل على تحطيمه .

إن الظروف المحيطة بالمسلم المعاصر ، لا تبعث على التفاؤل في المستقبل المنظور ، حيث لا توجد مدارس بالمعنى الكامل لتعليم الدين واللغة العربية الفصحى ، وإنما هي أقسام محدودة ومعاهد معلوبة وجامعات منكوبة ، تقوم بهذا العمل بإمكانات معطوبة .

وإذا أضفنا إلى ذلك النقص في عدد المدرسين والأساتذة المتخصصين ، وعدم وجود وسائل التعليم الحديثة ، والكتاب المشوق الخال من الأفكار اللادينية ، وأدركنا مقدار الصعوبات التي تواجه المسلم المعاصر في بلاده وأدركنا أيضا مدى الخطورة التي يتعرض لها الجيل الناشئ من ناحية الدين واللغة العربية الفصحى .

لا ريب أن هذا ناتج أيضا من تأثير الفكر التربوي الوضعي فقد مارس اليهود والنصارى وأصحاب الفكر الفلسفي المادي كل الوسائل لإبعاد المسلمين عن ساحة المنافسة في مجالات الحياة ، والمغلوب غالبا يخضع طوعا أو كرها لإرادة الغالب ، وليست المسألة في هذا الأمر مسألة بحث علمي وتطور صناعي وإنما هو أمر متلبس بالعلاقات القديمة بين الشرق والغرب ، وبين اليهود والنصارى والمسلمين ، وأن كافة الوسائل التربوية ، والإقتصادية والسياسية والثقافية والعسكرية ،

تعتبر وسائط للتضليل عن الغاية الحقيقية ، وهي دفع الإسلام عن الغرب من ناحية ، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم وقيمهم وكيانهم وحضارتهم من ناحية ثانية ، فقد مد اليهود والنصارى نفوذهم إلى مختلف القضايا في بلاد المسلمين ، سواء بإحياء الدعوات الشعوبية القديمة أم بمساعدة الدعوات الهدامة الجديدة، وكان له تأثيره في التربية والأذاعة والتلفزة والصحافة بتحويلها عن العربية الفصحى إلى لغة أشبه بالعامية ، وما يتصل بالأفلام والمسلملات والمسرح والحوار القصصي .

وكل هذا بهدف إحداث فجوة بين لغة الكتابة والكلام ، وبين لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في طموح خطير إلى الفصل بينهما على النحو الذي حدث للغة اللاتنية ، وتجهيل المسلمين بقرآنهم الذي لا يتعرف على إعجازه إلا باللغة العربية الفصحى ، وقد نجحوا إلى حد كبير ، حيث يلقن المسلم المعاصر في مدرسته وجامعته : الإلحاد ، والتطور المطلق ، والتقدم الحتمي ، وأن لا إسلام في نمط الحياة بالعامية دون أن يقدم له شيئا من حقائق عقيدته الإسلامية وذلك بهدف : ومن جهل الشيء عاداه ولهذا فإنه تتكون لدينه فكرة احتقار لأمته وتراثه ، ونظرة تمجيد للغرب وفلسفته الحضارية ، فلا يجد مفرا من تبني الآراء القائلة بالتبعية والإنصهار .

إن عزل الذكن عن التربية ومشكلات الحياة أمر بأتياه طبيعة الإنسان ، وتأباه الإتجاهات التربوية التي تنادي تربط التعليم الإجتماعية ، وتدينه وقائع الأحداث المعاصرة من الإضطرابات والهزات العنيفة التي يتعرض لها المجتمع المسلم كل يوم بسبب

سطحية الفهم الديني والهوى ، واستغلال ذلك في إثارة الشباب وتوجيههم وجهات غير مقبولة إسلاميا .

ومعنى ذلك أن تأثير الفكر التربوي الوضعي يشكل تهديدا أكيدا لقدرة المسلم على الإعتماد على نفسه ، والإرتباط بعقيدته وقيمه ومجتمعه وكيانه ، وأن هذا يستدعي العمل الجاد لإجاد نظام تربوي جديد يضمن على الأقل جماية المسلم الناشئ من الدوابان وهجر القرآن .

ونظرا لأهمية دور الشباب في بناء المجتمع المسلم باعتباره حامل لواء الغد أتصور العلاج على النحو التالي :

أولا : وضع نظام تربوي في ضوء مبادئ المنهج الإسلامي.

ثانيا : الإهتهام بتحفيظ أكبر قدر ممكن من القرآن الكريم والأحاديث النبوية المطهرة ، في مراحل التعليم المختلفة ، مع التركيز على المرحلة الإبتدائية حيث إن هذه المرحلة أنسب المراحل لغرس العقيدة والمبادئ والقيم الفاضلة .

ثالثا : الإهتمام بالقصص الديني والسيرة النبوية العطرة مع التركيز على الربط بين الدين والعلوم ومجالات الحياة .

رابعا : إصدار كتيبات حول نظريات الفكر التربوي الوضعي تكشف عن طبيعة هذه النظريات وأهدافها وطرق تحقيق ماتصبوا إليه ، وتوزيع هذه الكتيبات على الشباب والجامعات والمعاهد العليا .

خامسا : عقد ندوات ثقافية يكشف فيها عن أهداف التبشير والإستشراق ووسائلها في التسلسل وكشف النقاب عن الشيوعية وعن أساليبها وآمالها - رغم انهيارها في عقر دارها - ليكون ذلك بمثابة طعم واق من هذا الإتجاه ، وكشف النقاب أيضا عن الأندية والجمعيات التي لها صلة بالصهيونية العالمية ، وعن نشاطها وأعراضها حتى لا ينخدع الشباب بالإنتساب إليها أو العضوية فيها .

سادسا : إلزام كتاب السينما والمسرح والمسلسلات بالعودة إلى التاريخ الإسلامي لإخراجه في صورة ترض النفس المسلمة وتبصر الشباب بعقيدته وقيمته العليا ، وقد ثبت بالتجربة أن الفيلم أو المسلسل الذي له صلة بالدين يحظى بما لا تحظى غيره من الأفلام والمسلسلات .

سابعا : تشكيل لجان من العلماء تشارك لجان الرقابة على الأفلام والمسلسلات وتتابع هذه اللجان ما ينشر ضد الدين وتتولى الرد عليه .

ثامنا : دعم العمل الديني داخل المدارس والجامعات وعقد ندوات لأعضاء هيئة التدريس يحاضرهم فيها كبار الدعاة والمفكرين لحثهم على ربط العلوم بالعقيدة والمبادئ والقيم الخلقية وتوجيههم إلى قيمة الإعتصام بحبل الله ، وعدم الإلتفات إلى التشويش المغرض الذي يهدف إلى المساس بكيان المسلمين وتشتيت شملهم .

تاسعا : الإهتمام بالأنشطة الدينية كالصحافة المدرسية والمكتبة والمسجد والمعسكرات والمسابقات والندوات ، وتعويد

الطلاب على البحث والمناقشة والقدرة على نقد الآراء الباطلة .

عاشرا : عمل محاضرات في مختلف المؤسسات توضح منهج الإسلام وتناقش المشكيلات والقضايا المتعلقة بغاية النشاط البشري في الحياة حتى يرتفع الناس إلى فهم حقيقة رسالة الإسلام .

حادي عشر : حسن استخدام وسائل الإعلام ، فهي أدوات فعالة في عملية التربية والتعليم والهدم والبناء ، ونشر البغض والكراهية بين الناس ، أو المحبة والمودة والتعاون على البر والتقوى .

وإن أنجع الأساليب للإستفاذة من هذه الفعالية في التربية يستوجب ترك التأثر بمظاهر النصرانية التي دأبت أجهزة الإعلام عليها ، وتكثيف البرامج التربوية عبر إيجاد دور فعال للمربين والمربيات لتحقيق أهداف التربية المنشوردة ، وذلك باشتراكهم في وضع أسس الإستراتيجية الإعلامية ، إضافة إلى دعوتهم من حين لآخر في إطار من التعاون لأعداد وتقديم برامج هادفة، يراعى فيها الإنسان عقيدته ، وقيمه وآماله من أجل بنائه في جوانبه الورحية والوجدانية والخلقية والفكرية والمادية .

وفي الإسلام متسع للإعلام السمعي والبصري والمقروء ، والمجتمع الذي يتربص به الأعداء بحاجة إلى مايصقل الإيمان ويقوي الأخلاق ويفتح الألباب ، ويفتل السواعد ، ويدفع عنه خطر الخلاف والإختلاف والإنحلال والإحتلال .

وختاما إن هذه الورقة جزء يسير مما يجب أن يقال في هذا الموضوع الطويل العريض الشائك ، ولا أدعي أنها تكشف جديدا أو تقدم حلا ، ولكننا ملزمون بحكم غيرتنا على عقيدتنا وحرصنا على أبنائنا وبناتنا أن نذكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم
- الدكتور عبد الرحمن عمر الماحي : لمحة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، بحث غير منشور .
- الدكتور محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي .
مكتبة وهبة القاهرة 1981 .
- الدكتور هاشم حسن فرغلي : حقيقة العلمانية بين الخرافة والتخريب .دار الصابوني القاهرة 1989 .
- الدكتور عبد المنعم الحفني: الموسوعة الفلسفية، دار إبن زيدون، لبنان د.ت .
- الدكتور صابر طعيمة : أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي ، عالم الكتب بيروت 1984 .
- الدكتور عبدالواحد محمد الضار : الثقافة الإسلامية ، دار العلم للطباعة والنشر ، جدة 1983 .
- الدكتور محمود عبد الحليم عثمان : أضواء على حاضر العالم الإسلامي، الدار الإسلامية القاهرة 1987 .
- الدكتور محمد التومي : المجتمع الإنساني في القرآن الكريم ، الدار التونسية ، تونس 1986 .
- الدكتور محمد صابر سليم : دراسات في المناهج وطرق التدريس ، دار الشروق ، القهرة 1988 .
- الدكتور مقداد يالجن : دور التربية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإيسانية ، دار الشروق ، القاهرة 1983 .
- أنور الجندي : المجتمع الإسلامي ، دار الأنصار ، القاهرة 1985 .
- محمود شاكر : العالم الإسلامي ، ومحاولة السيطرة عليه ، المكتب الإسلامي ، بيروت 1984 .

- الأمير شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ، المركز السلفي القاهرة 1981 .
- المعهد العالمي للفكر الإسلامي : سلسلة إسلامية المعرفة (1) الأهرام ، القاهرة 1981 .
- مجلة لواء الإسلام العدد الثالث ، مطابع الأهرام، القاهرة ، يناير 1983.
- منير الإسلام : العدد السادس ، مطابع الأهرام القاهرة فبراير 1987 .